الثورة في الدرس الفلسفي في مصر

(المرحلة الثانوية نموذجًا)

د. غيضان السيد على(*)

إن ثمة علاقة جوهرية بين الفلسفة والثورة، إذا كنا نعني بالثورة ذلك التغير الراديكالي للواقع؛ فإذا كانت الرياضيات والكيمياء والفيزياء والطبيعة يعلمون الطالب الجبر والحتمية وعدم الاختيار، فإن الفلسفة وحدها تعلمه الحرية والإختيار وضروريات الحوار الخلاق، تعلمه نظريات العقد الاجتماعي والثورة على الحق الالهي المقدس، ومتى تكون الثورة واجبة وشرعية.

فالفلسفة تحدث الثورة أولًا في العقول كصوت خافت هادىء، تبدأ كقطرات الماء تنصب على الحجر الجلمود، فيحسبها البعض واهنة بلا أثر، ولكنها مع الأيام تكون قد تمكنت من هذا الحجر فيتفسخ ويلقى السمع ويرهفه لتلقي الرسالة، فإذا بهذا الصوت الخافت الهادىء يحرك النفوس فتثور ويتحول هو ذاته إلى شحنة انفعالية تحمل روح المغامرة التي تتسم بالجماعية ويغلبها الطابع الجماهيري ذو الهتافات والقعقعات التي تهز الميادين وتسقط الحكام من فوق العروش وتعلي من قيم الحق والخير والجمال والحرية والعدالة والديمقراطية والمساواة... إلخ. إذا كان هذا ما فعلته أفكار فلاسفة الثورة الفرنسية من أمثال: مونتسيكو، كونديياك، دالمبير، فولتير، ديدرو، دولباخ، هلفسيوس، كابانيس، وجان جاك روسو....إلخ. فالأمر نفسه فعله الدرس الفلسفي في مصر خاصة في المرحلة الثانوية، وهذه هي القضية التي سنعمل على البرهنة عليها في ثنايا هذا الورقة البحثية فيما يلي:

(*) قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة بني سويف. مصر.

الثورة تتشكل وجدانيا مع تعريف الفلسفة

يقول «حسن حنفي» فى بداية تسعينيات القرن الماضي «إذا كانت الخمسينيات والستينيات عصر الثورة,وإذا كانت السبعينيات والثمانيات عصر الثورة المضادة فإن التسعينيات والعقد الأول من القرن القادم ستكون عودًا إلى عصر الثورة من جديد، ولكن هذه المرة على ركائز شعبية وقيادة وطنية تنتسب إلى الطبقات المتوسطة والدنيا مع تنوير للثقافة الوطنية وإعطاء الأولوية المطلقة لتحويل الثورة إلى دولة وتغيير الواقع الاجتماعي»[١] هكذا كانت مهمة الفيلسوف تستشرف المستقبل، بل ويبدو السياق وكأنه داخل إطار العلم المبني على تفسير القوانين التى تجعلنا نتوصل بسهولة إلى التنبؤ والتحكم والتفسير، فقد أحسن تفسير الماضى وإعطاء المعنى الحقيقى للحاضر، فاستطاع أن يتنبأ بكل ثقة بالمستقبل الذى أكده وكأنه يراه.

هكذا كان الدرس الفلسفى الجامع، فإذا ما تركنا المرحلة الجامعية إلى مرحلة أدنى هى المرحلة الثانوية، التى شكلت وجدان المراهقين والشباب فألهبت حماسهم بعد أن عملت على إثارة وتعميق وعيهم الفردى، فلم تأت كقطيعة معرفية، بل كنتاج لفعل الفلسفة فى الصدور والعقول؛ حيث جاءت الثورة فى تعريف الفلسفة منذ البداية؛ حيث إن هناك توازى بين معنى الفلسفة ومعنى الثورة، فإذا كانت الفلسفة إعلاء لسلطة العقل، فهى ثورة على عقلية الدجل والشعوذة والخرافة، وإذا كانت إعلاء لأساليب البرهان فهى ثورة على أساليب الجدل والخطابة، وإذا كانت الفلسفة تعنى التمرد على سلطتى السياسة والدين فهى ثورة على الظلم والطغيان والقداسة الزائفة. ويترسخ فى وجدان الطالب فى بداية المرحلة الثانوية ذلك المعنى, حيث يسعى الكتاب المدرسى «مبادىء الفلسفة والمنطق والتفكير العلمى «إلى ترسيخ هذا المعنى، فمنذ البداية يعرف الفلسفة بأنها «وجهة نظر أو رؤية فكرية شاملة إزاء الحياة والإنسان والعالم»[٢]. حيث أن الفلسفة بهذا المعنى تحث على تعقل معنى الحياة وإهتمام بمشكلات الإنسان الواقعية، واتجاه عملي لتوجيه السلوك،

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة، ١٩٩١، ص ٧٥٧.

(٢) محمود أبوزيد ابراهيم وآخرون: مبادئ الفلسفة والمنطق والتفكير العلمي، مطبعة وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤.

وأصحاب هذا التعريف إذ يربطون الفلسفة بالحياة، فذلك لأنهم يرون أنه لابد من حقيقة فلسفية يعيش عليها الإنسان ويحيا من أجلها، ولولا هذه التجربة العقلية التى تغذى حياة الإنسان، لما كان للفلسفة أى موضع فى الوجود البشرى، وبالتالي لما استمرت الحاجة إلى التفلسف فى كل زمان ومكان، ومن ثم كانت أهمية الفلسفة للفرد، حيث إنها تعمل على إشباع الرغبة الطبيعية لدى الإنسان للمعرفة، كما تعمل على تنمية قدرات التفكير وحل المشكلات، وهنا تكمن حقيقة الثورة من وجهة نظرى، حيث تؤدى الفلسفة إلى تنمية الروح الفلسفية لدى صاحبها، وتتمثل هذه الروح فى استقلال الفكر المستنير، الذى يرفض الوصاية عليه، والنقد العقلى الذى لا يسلم بشيء تسليمًا أعمى، وتربية العقل على التساؤل المستمر والدهشة، كما أن الفلسفة توسع آفاق العقل وتنمى فيه الإستعداد للتأمل، وتحفزه على إتخاذ القرار الاخلاقى الحر، وأهم ما يميز هذه الروح الفلسفية، بأنها تقوى إحساس الإنسان بمسئوليته على مواجهة مشكلاته وأزماته وصراعاته، كما تساعده على بحثها وتنظيمها وإيجاد الحلول لها .الفلسفة اذًا تكفل تعود مواجهة المشكلات ومحاولة البحث عن حلول لها، وترفض أن يعيش الفيلسوف فى برج عاجى فى معزل عن الناس والمجتمع ومشكلاته.

فلما بدأ يشعر الشباب بتفشى الفساد الاجتماعى وإنتشار الرشوة والسطو على المال العام، والإتجار فى السوق السوداء، والخصخصة، وتهريب مدخرات البلاد للخارج، بدأت الاحتجاجات والاعتصامات، وبدأت الحركات الشبابية بعد أن عمد النظام البائد على حظر التنظيمات الشعبية التى كانت تقوم بمهمة تربية الشباب، فزاد الفقر، وأصبحت الرشوة أحد مصادر توزيع الدخل القومى من الدرجة الأولى والثانية، واتسع نشاط القطاع الخاص والخصخصة بوجه عام، ومن هنا كانت مهمة الفلسفة التى عملت على تنمية وعى الإنسان وفهمه لذاته وعالمه، فهى إذا كانت تعمل على تحديد مكان الفرد فى الوجود، فإنها أيضًا تستطيع فى ضوء تناولها للأخلاق والسياسة أن تحدد الأهداف والمثل العليا، كما تحدد غايات المجتمع الذى ننتمى إليه، فتضيء أمامنا الحياة التى ينبغى أن نحياها فى وطن، وأعضاء فى مجتمع، وبهذا وبغيره نشعر بقيمة الجانب المشرق الوضاء فى حياتنا، ونمضى فى ضوء فهمنا للحياةإلى عالم أكمل، وحياه أكرم وأسعد.

كما يقدم لنا هذا الكتاب المقرر معنى الثوره الروحية من خلال الفلسفة. حيث يجعل من ضمن أهمية الفلسفة للفرد «إقامة الإيمان الدينى على أساس عقلى»[١] بحيث يواجه تلك المقولة الخاطئة التى تم إشاعتها بين العامة بأن الفلسفة تؤدى إلى الكفر والإلحاد، وتقتضى مخالفة الوحى الإلهى وحقائقه، حيث إن مناهج البحث الفلسفى لا تبرر هذا الظن، بل تسعى إلى اثبات نقيضه، إذ ليس ثمه تناقض بين إخلاص الفيلسوف لتأملاته العقلية، وولائه - كإنسان يحيا فى مجتمع - للعقيدة الدينية التى يدين بها، وفى تاريخ الفلسفة كثير من الشواهد التى تؤكد ذلك .فيشير الكتاب إلى أن الإسلام قد اطلق للناس حريه العقل، وأباح التفكير فى ملكوت السموات والأرض، بل حث على ذلك، وجعل النظر العقلى الصحيح أساس الإعتقاد الصحيح.[٢] القرآن الكريم من أوله إلى آخره يناشد العقل و يطلب الإحتكام إليه، و يهيب بالفكر إلى التأمل، ويحفزه إلى البحث ليستدل الإنسان ببديع الصنع على الصانع عز وجل وليتعلم و يبتكر و ينتفع بما خلق الله فى السموات والأرض، وما أودع في الكون من قوى وأسرار.

فإعمال العقل لا يجعل الفرد أن يقبل شيئًا دون فحص وتمحيص، ولا يتأثر بالمسلمات الموجودة والشائعة، فهى بهذا المعنى ثورة على الموروث و إخضاعه للنقد ولا أبالغ أن قلت أن الفلسفة وحدها عليها أن تقدم ما يتصدى للجماعات الاسلامية المتعصبة التى لا تقبل الآخر كما لا تقبل المناقشة والحوار بحجة أنها تمتلك الحقيقة المطلقة، وهى (أي الفلسفة) وحدها القادرة على اقناعهم بان ملاك الحقيقه المطلقة دائمًا واهمون. ثم يتناول الكتاب أهمية الفلسفه للمجتمع، التى تعمل على تحليل ونقد الواقع الاجتماعى وكشف مشكلاته والعمل على حلها، فنرى أن الهدف الدائم للفلسفة هو التحليل والنقد الفلسفى الذى يعنى الجهد العقلى والعلمى لعدم تقبل الأفكار وأساليب العقل والسلوك والظروف الاجتماعيه تقبلًا أعمى، فالهدف الدائم من النقد الفلسفى هو ألا يضيع الناس فى واقع مؤذٍ وضار، أو يستسلموا لأفكار كاذبة أو يخضعوا لأفكار أو ألوان من السلوك يزين لهم واقعهم بأنها «فوق النقد» أو مجرد الاستسلام لإرادة حاكمة يهيىء لها أنها فوق النقد وفوق الحساب،

(١) المصدر السابق، ص٧.
(٢) المصدر السابق، ص٧.

أو أنها لا تقبل التغيير، أنه يبصرهم بالعلاقة بين حياتهم وحياة المجتمع ككل، وبين نشاطهم الفردى وأهدافه العامة وأفكار العصر الكبرى[١].

ومن ثم جاء الحرص على أن تقوم الفلسفة بعد إثارة الوعى الفردى لدى الأفراد، ودور النقد الفلسفى فى حياة الشعوب، أن تعمل على تقديم حلول مقترحة للمشكلات الاجتماعية، حتى لا يقتصر دور الفلسفة على مجرد النقد وكشف المشكلات، بل أن هذا النقد يقترن دائمًا بالبناء واقتراح بدائل وحلول مقنعة للمشكلات الحياتية والثقافية والاجتماعية، فبعد أن تقوم الفلسفة بتحليل التراث الثقافى والتقاليد بحثًا عن جذور المشكلات، تعمل على تقديم الحلول الممكنة لهذه المشكلات.

وما يلبث الكتاب حتى يصرح فى صفحته التاسعة بمعاناة الإنسان فى مصر والعالم العربي فيقول «والإنسان اليوم يعانى من مشكلات متنوعة :فمشكلة تتعلق بالحرية والديمقراطية، وعلاقة الفرد بالدولة، والحياة، والعدالة، والحروب، والعولمة، إلى غيرذلك من مشكلات تحتاج إلى عقل الفيلسوف وحكمته للوصول إلى حلول ممكنة لها»[٢]، كما تبحث الفلسفة أيضًا - فى هذا المجال - ما ينبغى أن يكون عليه تنظيم المجتمع لتتحقق فيه أهداف عليا مثل الحرية، والأمن، والعدالة، والتقدم، والرفاهية.

ومن هنا وعى الطالب المصرى معاناة مجتمعه ومشكلاته الحقيقية، واقعيًا من خلال واقعه المتأزم، ونظريًا من خلال الفلسفة التى عملت على إثارة وعيه الفردى وعملت على تعميقه، فقاده العمل والنظر معًا إلى التغيير رافعًا شعار «أرحل - الشعب يريد اسقاط النظام» الشعب يريد التغيير الكامل نحو الحرية.

الثورة ونظريات فلسفية مقررة (العدالة - الواجب - الضمير - العولمة - الحرية)

إذا كانت الفلسفة - كما سبق القول - عبارة عن تساؤل عن معنى الحياة الإنسانية، فهي

---

(١) المصدر السابق، ص٩.

(٢) المصدر السابق، ٩. وهذه العبارة وغيرها جعلت الكاتب الصحفي خالد منتصر يقول في المصري اليوم بتاريخ ٩/ ١٠/ ٢٠١١ في مقالة طويلة عن هذا الكتاب «أخيراص كتاب وزارة يستحق أن يوضع في المكتبة».

بذلك تساعدنا على أن نعرف على أي وجه ينبغي لنا أن نحيا، فهي تعلمنا كيف نحلل المفاهيم والقضايا التي يعبر بها الناس عن واقع حياتهم ومشكلاتهم وأمالهم؛لأن المعرفة الواضحة الدقيقة بهذا الواقع هي ولا شك خطوة إلى الأمام نحو تصحيح نظرتنا إلى الحياة والرقي بمستوى تجاربنا، فنحن في الغالب الأعم إما أن نرفض عن جهل أو نقبل عن سذاجة أو نرجيء الأمر أو ننسحب من الميدان إيثارًا لمبدأ السلامة، وطلبًا للراحة النفسية والذهنية.

إن فهم ماهية المفاهيم والمصطلحات تجعلنا نقترب من اليقين المنشود، تبعدنا عن اللبس والغموض، تجنبنا(بعبارة ديكارت) الأرض الرخوة والرمال المتحركة، تجعلنا نعي الواقع ونبحث في طرق تطو يره وتغييره إلى الأفضل، ولكن يجب علينا أن نتيقن بأنه لا تغيير بلا توضيح، ولا تطوير بلا تمييز، ولا نتائج ترجى بلا فهم حقيقي للمقدمات الأولى، و إلا كنا كمن يضرب في عماية، أو كالدجاج الذي يرقد على بيض مسلوق.

ومن هنا كانت أهمية الفلسفة التي تبحث في حقيقة وماهية المفاهيم والمصطلحات وتجعلنا نعمل على تأصيلها نظريًا ونبحث عن كيفية تطبيق هذه المفاهيم في الواقع، وعدم تشو يه هذه المصطلحات أيديولوجيا لأغراض سياسية أودينية، على غرار ما تم في استخدام أحمد لطفي السيد لمصطلح «إيمانه بالديمقراطية» الذي كان سببًا في حرق سرادقه وخسارته للانتخابات، فكيف ينتخب الشعب من هو مؤمنًا بالديمقراطية ويترك من هو مؤمنًا بالاسلام؟!

من هذه المفاهيم التي تعمل الفلسفة على تأصيلها في وجدان وعقول النشء: العدالة، الحرية، الواجب، الضمير، العولمة.

العدالة: هي أهم القيم الأخلاقية قاطبة، هي شعار كل الأحزاب السياسية قبل وبعد الثورة، حيث أنها تعمل على تحضر المجتمع الإنساني ورفاهيته، بل هي الأصل في قيام المجتمعات، رأها المصري القديم في المساواة في المعاملات الإنسانية اليومية وأمام القانون وجوهرها المساواة وعدم التمييز، وقد صوروا العدالة كإمرأة معصوبة العينين تمسك بيدها ميزان العدالة، تلك الصورة الباقية حتى اليوم، ورأها أفلاطون فضيلة فردية واجتماعية وهي ثابتة وخالدة، وأنها أساس قيام الحياة الاجتماعية في الفرد والمجتمع[١].

---

(١) المصدر السابق، ص١٧-٢٣.

ولذلك كانت العدالة مطلب كل الشعوب، وشعارًا أساسيًا لكل الأحزاب والجماعات والسياسية الدينية على السواء، وكلها أكثر اهتماما بالعدالة الاجتماعية التي تعمل على تقريب الفوارق الاجتماعية بين البشر والعمل على التوفيق بين حاجات الإنسان وقدراته، وإتاحة مبدأ تكافؤ الفرص عند تساوي القدرات والمواهب، وتيسير الأسباب المؤدية إلى المساواة (مثل الصحة والتعليم والثقافة العامة..... إلخ) وتحقيق ظروف عامة لحياة متشابهة لجميع المواطنين.

إن ما تسعى إليه العدالة الاجتماعية الحقيقية هو تعويض البشر عن الضعف وعن الهزيمة وعن قلة الحيلة تجاه القوة والغلبة والسلطة، وبفضل العدالة الاجتماعية يتحقق الإستقرار الاجتماعي، وتتقدم حياة البشر اقتصاديًا واجتماعيًا وبدونها يكون الظلم والجبروت والغضب والاحتقان والتوتر ومن ثم الثورات العارمة للشعوب.

الواجب: ليست كلمة الواجب بالاصطلاح الفلسفي الذي يستغلق فهمه على أذهاننا، فإننا نتحدث في الحياة العادية عن واجبات الأباء نحو أبنائهم، وواجبات الحاكم نحو المحكومين، وواجبات المواطنين نحو وطنهم، وواجبات البشر جميعًا نحو الإنسانية...إلخ[1].

فالواجب الأخلاقي في حقيقته هو تكليف إلزامي ليس من حقنا أن نناقشه أو نتهاون في الاستجابة له، فهو أمر أخلاقي لا يحتمل قيدًا أوشرطًا ؛لأنه ضرورة تفرضها علينا طبيعتنا الإنسانية بوصفنا كائنات عاقلة حرة. ولذلك ساعد الواجب بمفهومه الفلسفي في إثارة الأفراد ضد من حولوا الواجب إلى تكليف يمكن مناقشته والتهاون في الاستجابة له، بل قلبوا معناه إلى الضد، فصارت الرشوة واجبًا وصارت المحسوبية أيضًا واجبًا، فكانت النتيجة ثورة عارمة لازمة.

الضمير: قوة فطرية كامنة داخل الإنسان وهي التي تلزمه بضبط نزواته والحد من جموح أهوائه وشهواته وتوجهه إلى حيث ينبغي أن يسير[2]، إنه قوة فطرية تدين بطبيعتها

(١) زكريا إبراهيم: مبادىء الفلسفة والأخلاق، مطبعة وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٣١-١٤٨. وأنظر أيضاً المرجع السابق،ص ٢٣-٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص٢٦.

الخيانة والكذب ونحو ذلك من الرذائل حدسيًا تلقائيًا، وتمتدح تلقائيًا الأمانة والشجاعة والصدق ونحوه من الفضائل بدون تفسير عقلي معقد، ويمثل الضمير حقيقة قصوى من حقائق الطبيعة البشرية فهو مشترك لدى الناس جميعًا وإن تفاوت نصيب الناس من قوة وضعف، وله وظيفتان الأولى تحليلية نظرية تعمل على تمييز الصواب من الخطأ، ما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعله، التمييز بين الخير والشر، أما الثانية فهي الوظيفة الآمرة الناهية فهي تأمر بأداء الفعل التي تستحسنه وتنهى عن أداء الفعل التي تستقبحه، وبذلك يمكن وصفه بأنه ثورة أخلاقية باطنية تقود مباشرة إلى الثورة السياسية وغيرها.

العولمة: ظهرت العولمة استجابة لحلم إنساني قديم لعله بدأ منذ زمن بعيد مع الفلاسفة والحكماء والأنبياء الذين كانوا يلتمسون مبدأ أو عقيدة دينية واحدة من شأنها أن تحرر النفوس من الحدود المحلية أو القومية البحتة ويجعلها متاحة للناس كافة في كل مكان، وعلى هذا النحو ابتكروا صلة بين ضمير الفرد والإنسانية كلها[1]. وبالرغم من أن العولمة ما زالت في مرحلة التكوين إلا أنه يمكن تعريفها بأنها حرية انتقال وتدفق المعلومات ورؤوس الأموال والسلع والتكنولوجيا والأفكار والمنتجات الإعلامية والثقافية والبشر أنفسهم بين جميع المجتمعات الإنسانية. أو بإختصار أن يصبح العالم من خلال العولمة قرية صغيرة، ساعد على ذلك الثورة التكنولوجية في العالم وسيولة وتدفق المعلومات عن طريق الأقمار الصناعية وشبكات الانترنت، وسهولة الاتصال بين أرجاء العالم، فظهرت العولمة بمظاهرها المختلفة الاقتصادية والثقافية والسياسية. ورغم ايجابيات وسلبيات العولمة المتداخلة والمقلقة، إلا أن هذا الموضوع يفجر الثورة ويدعو إليها، ينبه إلى الخطر من خلال السلبيات التي تدعو إلى الرعب والفزع، ثم تعقب على كيفية التعامل معها من خلال إصلاح الاقتصاد ووسائل الإعلام والتعليم والثقافة.

فعندما ينظر الشباب إلى ذلك الاقتصاد المهلهل الذي يتجه إلى الخصخصة بكل قوة، بل يشاهد ذلك الانهيار المتواصل لاقتصاد بلاده، وذلك التخبط في التعليم والثقافة، كل سنة تجربة مختلفة، وكل وزير يأتي إلى وزارة التربيةوالتعليم وكأنه يأتي من كوكب أخر، لا علاقة له بالتعليم ومشكلاته من قريب أو من بعيد، فلا تربية ولا تعليم، أما الإعلام

(١) المصدر السابق، ص٢٨.

فيسيطر عليه الأفاقون والمنافقون الذين لا هم لهم سوي تمجيد الحاكم وحاشيته الفاسدة، هذا الأمر نبه الشباب بأن وضعنا لا يسمح لنا بدخول عصر العولمة المحتوم، فلا اقتصاد يقوى على المنافسة ولا تعليم متقدم ولا ثقافة ولا إعلام على قدر المسئولية الضخمة، بل إعلام مسيس. ونحن لا محالة على وشك حصد السلبيات لا الإيجابيات، فكان درس العولمة في صميمه دعوة صريحة إلى الثورة وإلى التغيير وتعديل الوضع القائم.

الحرية: هي مشكلة المشاكل في الفكر والدين والفلسفة والسياسة، وهي القدرة التي تميز الكائن الحي العاقل الذي يصدر في أفعاله عن إرادته هو، لا عن إرادة أخرى غريبة عنه، ولعل أكثر تعريفات الحرية قبولًا هو ذلك التعريف الذي يرى أن الحرية «هي اختيار الفعل عن روية وتدبير مع إمكانية عدم اختياره أو القدرة على إختيار هذا الفعل أو نقيضه» والحرية تقابلها الجبرية، والجبرية تعني عجز الإرادة العامة للإنسان عن الإختيار والتحكم في سلوك وأفعال صاحبها، وأنها قاصرة عن توجيه مجرى الأحداث(١).

يعرض الكتاب المقرر أدلة وجود الحرية ويجعلها أكثر معقولية من أدلة وجود الجبرية، لكي يعطي المراهق شعورًا قويًا بالحرية، فتصير الحرية مطلبًا طبيعيًا متجذرًا في نفوس الشباب. فالحرية نداء كل الشعوب، ولذلك لم يكن بالأمر الغريب أن تخرج جموع الشباب منادية بالحرية، واسقاط رموز الدولة ورجال أمنها من الذين كبلوا الحريات واعتدوا عليها.

النقد والعقلانية والفلسفة والثورة مصطلحات متقاربة في ذهن المراهق

كل هذه المصطلحات لا تتردد إلا في مادة الفلسفة، فالنقد هو تمييز الخطأ من الصواب عن طريق العقل، والعقلانية هي إعمال العقل وتحسين ما يراه حسنًا وتقبيح ما يراه قبيحًا، أما الفلسفة فهي قائمة على العقل، وهيدعوة صريحة إلى تفعيله، والزعمبأن أي محاولة لتحجيمه أو تهميش دوره لهي دعوة صريحة إلى التخلف والجمود والرجعية والصعود نحو الهاوية. وكل هذه ما هي إلا معاني متعددة ومترادفة للثورة التي تدعو إلى التعديل والتغيير وإسقاط الخطأ وتعديل القبيح.

---

(١) المصدر السابق، ص٣٥-٣٦.

في المقرر الدراسي فلاسفة قادة لكل الثورات

يتضمن المقرر المدرسي بعض كبار الفلاسفة الذين اهتموا بأحوال مجتمعاتهم وأزعجهم سوء إدارة الدولة وفساد الحاشية المبذرة وتحول الحكم إلى حكم استبدادي وأصبح القانون فيها هو ما يطابق إرادة الحاكم ومصلحته الفردية، فطالبوا بالحقوق الطبيعية لكل الأفراد وضرورة وجود قوانين تحكم العلاقة بين الفرد والدولة وعلاقة الأفراد ببعضهم البعض؛ فهاجموا حكم الطغيان والاستبداد وصوروا الحاكم الفاسد بالمتوحش أحيانًا الذي إذا أراد ثمارًا قطع الشجرة من جذورها ليجمع الثمار وهذا هو رمز الحكومة الاستبدادية والحاكم المستبد، يقضي بجهله على شعبه ومنهم من واجه الفساد المستشري في مجتماعتهم فكان بمثابة ثورة قائمة على الفساد، ومنهم:

سقراط: الذي استطاع بنشاطه الفلسفي القائم على الحوار التصدي للفساد الذي انتشر في المجتمع اليوناني القديم على يد السوفسطائيين(١) وما أحوجنا في هذه إلى الأيام حتى لا تسرق الثورة.

الغزالي: الذي عالج انحرافات الشباب في عصره، وحث الشباب على العودة إلى التمسك بصحيح الدين(٢)، فكان بمثابة ثورة.

مونتسيكو: وهو أحد كبار الفلاسفة في فرنسا والذي إهتم بأحوال المجتمع الفرنسي وأزعجه سوء إدارة الدولة وفساد النبلاء المبذرين، وتحول الحكم إلى حكم استبدادي وأصبح القانون هو ما يطابق الملك، فقام بدراسة الحقوق الطبيعية لكل إنسان، كما درس قوانين الأمم من حيث علاقتها بعضها ببعض، والقوانين السياسية التي تحكم العلاقة بين الفرد والدولة، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض، وكذلك درس أيضًا أشكال الحكم ومبادئه، فكانت فلسفته من أهم الأفكار التي تأثر بها رجال الثورة الفرنسية، والثورة في كل مكان، كما استهجن المقرر الدراسي هوبز وفلسفته التي تجعل من الحاكم حاكمًا مطلقًا أو تنينًا لا يجوز الثورة عليه، فهو تنين يبث الرعب في قلب كل شخص يحاول الخروج عليه(٣).

---

(١) سماح رافع محمد وآخرون: الفلسفة والمنطق، مطبعة وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣.

(٣) أميرة حلمي مطر وآخرون: دراسات فلسفية (المستوى الرفيع) وزارة التربية والتعليم، دار نهر النيل للطباعة والنشر، ٢٠٠٨، ص٤٠-٤٥.

جان جاك روسو: كان أثر روسو كبيرًا في تشكيل عقلية رجال الثورة الفرنسية حتى أعتبروا كتاب العقد الاجتماعي هو المنشور الأول للثورة الفرنسية، ويجوز اعتباره من وجهة نظري هو المنشور الأول لكل الثورات، فقد كان سبب دعوة روسو للحرية انتشار الحكم الملكي المستبد في غالبية أنحاء أوربا أثناء عصره واعتماد الملوك في تبرير استبدادهم على ما يعرف باسم الحق الإلهي المقدس، حيث كان الملك يعتقد بأنه خليفة الله في الأرض وأنه مفوض شخصيًا من الله تعالى في حكم هذه المجموعة من البشر من دولته الخاصة ومن ثم لا يجوز لأفراد الشعب أن يثوروا على ممثل الله أو يتمردوا على إرادته، وتصبح كل أوامر الملك ونواهيه مستمدة من وحي الله تعالى وواجبة النفاذ دون إعتراض لذلك كانت نتيجة هذه الفكرة عن الحق الإلهي المقدس هي ترسيخ أقدام الحكم الملكي الديكتاتوري المستبد وانحصار نطاق الحرية الفردية للمواطنين الذين أصبحوا خاضعين تمامًا لإرادة الملك الإلهية .وأعلن روسو الثورة على الحكم الملكي والحق الإلهي المقدس، وأعاد النظر في طبيعة الحاكم والمحكوم، فرفض مقدمًا فكرة الحق الإلهي المقدس، وعول على فكرة العقد الاجتماعي التي تدور حول اختيار بعض الأفراد ليتخصصوا في تنظيم المجتمع وإدارته، ويتولوا تنظيم الجماعة بشرط أن ينيبوا عنهم من يحافظ على حريتنا ويسير ضمنًا لإرادة المجموع , أما لو خرج عن إرادة المجموع واعتدى على الحريات الأساسية للأفراد فيحق عندئذٍ للشعب أن يخلعه من الحكم ويختار حاكمًا غيره، وهكذا حلل روسو قيام الثورات ضد الحكام المستبدين، بل اعطى فكرة الثورة على الحاكم المستبد معناه المشروع لكل زمان ومكان محطمًا فكرة الحق الإلهي المقدس، فمهد بذلك لقيام الثورة الفرنسية وقيام الثورات على الحاكم المستبد في كل زمان ومكان، وهاجم أيضًا الحكم الديكتاتوري ودعا إلى الديمقراطية في الحكم؛لأنها تستهدف تحقيق الحرية لكل أفراد الشعب، أما الديكتاتورية فإنها تسلب الأفراد حرياتهم في ظل سيطرة الأقلية على الأغلبية بينما الديمقراطية تمنحهم حرياتهم؛لأن الهيئة الحاكمة جاءت وفقًا للعقد الاجتماعي العرفي بين أفراد المجتمع، ومن ثم يصبح لهؤلاء الأفراد الحق في تنحية هذه الهيئة الحاكمة إذا ما خرجت عن إرادة الشعب، ورغم ذلك فإن روسو يعتقد أن الديمقراطية بمعناها الصحيح والكامل لم ولن تتحقق إطلاقًا، وإنما يمكن محاولة الإقتراب منها والسعي إلى تحقيق أهدافها قدر الإمكان؛ حيث توجد إلى جانب

مزايا الديمقراطية الحرة بعض المساوىء مثل سرعة تغيير الحكومات بكثرة وقابلية التعرض للحروب الأهلية ولكن بالرغم من هذه المساوىء فإن روسو يفضل الديمقراطية قائلًا: « إنني أفضل الحرية مع الخطر على العبودية مع السلم » فكان لفلسفة روسو السياسية أثر هام في توجيه الفكر الفلسفي السياسي وفي الأحداث السياسية التاريخية من بعده، ففي فرنسا تأثرت الطبقة الوسطى المثقفة بكتاباته وقدستها ونشرتها في أوساط الشعب فكان ذيوع هذه الأفكار أكبر ممهد للثورة الفرنسية ضد امتيازات طبقة الأشراف وقد تأثر زعماء الثورة أعمق تأثر فجعل شعار الثورة الحرية والمساواة والإخاء واستحدموا بعض عباراته بنصها في وثيقة حقوق الإنسان، كما أن عبارته الخالدة: «إنني أفضل الحرية مع الخطر على العبودية مع السلم»(١) ترددت في الجمعات المليونية المتتالية التي خرج إليها الشعب سواء أثناء الثورة أو في مليونيات إنقاذ الثورة كما ترددت في كل ثورات الربيع العربي، كما أن شعار كل الثورات العربية كان الحرية والمساواة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، أي أننا لا نبالغ إذا قلنا أن جان جاك روسو هو الأب الروحي لكل ثورات الربيع العربي المطالبة بالحرية والمساواة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

جان بول سارتر، ذلك الفيلسوف الذي خاض غمار العمل السياسي في بلاده، ودعا إلى تأكيد الحرية الفردية، وربط الدعوة بالسلام بفلسفته في الدعوة إلى الحرية الفردية ؛لأن السلام هو الحرية، وكان أول ثائر على فرنسا وعارض حربها الاستعمارية في الجزائر على الخصوص، وكانت جهوده هو وزملائه الفلاسفة والمفكرين من العوامل الأساسية التي أجبرت فرنسا على منح الاستقلال والحرية للجزائر(٢).

كما يمكننا - بدون أي مبالغة - أن نطلق على سارتر لقب الفيلسوف الثائر؛ حيث ثار ضد التقدم العلمي الذي عمل على سيطرة الألية على الإنسان، داعيًا إلى الحرية الفردية. تلك الألية التي ارتبطت بالتقدم العلمي والتكنولوجي وسيطرت على الإنسان، حتى أصبح مجرد آلة تؤدي عملها اليومي برتابة آلية وملل شديدين، يقتلان تدريجيا حيوية الإنسان وفرديته التي كاد يفقدها، كما ثار على الحرب ودعا إلى السلام وجعل بمقدرة الإنسان الإختيار

(١) سماح رافع محمد وآخرون: الفلسفة والمنطق، مطبعة وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٧٤-٧٦.
(٢) المصدر السابق، ص٢٥.

بين الحرب والسلام، بين النصر والهزيمة ؛لأنه جعل وجود الإنسان أسبق من ماهيته، وأن الإنسان مسئول عن أفعاله ويتحمل نتائجها، داعيًا في ذلك كله إلى الحرية والسلام ونيل الشعوب المحتلة استقلالها، وكأنه يعلمنا جميعًا أن نبحث عن الحقوق المهدرة، وإذا سكتنا عن ذلك فلا نلوم إلا أنفسنا، وهذا ما تعنيه عبارته الخالدة «الإنسان حر؛ لأن وجوده أسبق من ماهيته».

الفلسفة ثورة على الأصوليات التي تملك الحقيقة المطلقة

الأصولية هي السعي إلى فرض النصوص الدينية المقدسة أو ما ينتسب إليها على كل شئون الحياة والمجتمع وتفسير كل شيء والحكم على كل ظاهرة بمقتضاها، بحيث تصبح هذه النصوص هي المعيار الأساسي والوحيد للسلوك والحكم والتقييم دون مراعاة لما يستجد من أوضاع وأحوال[1]. وهي بذلك لا ترى إلا الأبيض والأسود ولا ترى درجات متفاوتة من الألوان المختلفة، إذا رفضت فإنها ترفض عن جهل وإذا وافقت فإنها توافق عن سذاجة، وفي الغالب الأعم تؤثر السلامة وتعمل على تسليم الرأي للنقل دون العقل، إيثارًا لمبدأ السلامة وطلبًا للراحة النفسية والذهنية والعقلية.

وهي دائما تتعامل مع الأخرين على أنها الفرقة الناجية في مواجهة الفرق الضالة التي هي جمهور المخالفين والمغايرين والمعارضين من التنويرين والعلمانيين ودعاة الدولة المدنية والمتحدثين عن الإشتراكية والرأسمالية ,ودعاة كل البدع والضلالات الآتية من الغرب الكافر الفاجر.

والأصوليات العامة تستبدل العقل بالنقل، والتسامح بالتعصب، والحوار بفرض الرأي، وبحق الإختلاف منطق الاجتماع، وبالتعددية البعد الواحد، وبالشك التصديق، وبالسؤال التسليم، وهي نظام يرفض الحوار ويميل إلى التلقين، ويلغي روح المبادرة الخلاقة، ويعادي أفق الإبداع المفتوح. مناخ يمهد لعمليات الإغتيال المادي أو التصفية الجسدية بعمليات الإغتيال المعنوي للمخالفين وعمليات التصفية الفكرية للمعارضين وذلك بواسطة خطاب

(١) جابر عصفور، أنوار العقل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٢٧.

أصولي لا يعرف سوى التعصب الجامد للأفكار التي ينطلق منها، فهو خطاب لا يدرك سوى وجه واحد للحقيقة التي يتوهم أنه يمتلكها دون غيره.

أما الفلسفة فهي في جوهرها ثورة على الأصولية الجامدة، ترحب بالحوار القائم على العقل، وبالتسامح مع المخالفين لها في الرأي، تدعو المتعارضين إلى التحاور والنقاش بالكلمة والعقل بدلًا من تقاذف التهم والتقاتل بالسلاح، ترحب بالحوار وتدعو للفهم، تشجع روح المبادرة الخلاقة وتتبنى أفق الإبداع المفتوح.

ومن العجب العجاب ومن مصائب مكتب التنسيق، وتحت إصرار الجامعات على تعيين الأكثر حفظًا وليس الأعلى فهما، جاء إلى أقسام الفلسفة في بعض جامعتنا من يعتقد أن الفلسفة غثاء لا طائل ولا نفع يجدي من ورائها، بل ويقوم بتدريس رأيه هذا للطلاب بأقسام الفلسفة !! فالعلم عنده إما مادي أو روحي، المادي لا بأس أن نأخذه من الغرب، لا لشيء، ولكن لأنهم(أي الغرب) أخذوه موضوعًا ومنهجا من العرب، فما فرنسيس بيكون - مؤسس المنهج التجريبي الأول وصاحب الفضل في تقدم العلم في أوربا - إلا تلميذ من تلامذة العرب ! أولم يكن إلا طالبًا في مدرسة العرب! أو هو في أحسن الأحوال ما إلا رسول من رسل العلم والمنهج الإسلاميين في أوربا المسيحية. أما من ناحية الموضوع (العلم الطبيعي) فهم (الغربيين) لم يبتدعوا علمًا جديدًا إلا ما أخذوه عن ابن الهيثم في الطبيعة، والرازي وابن سينا في الطب، وجابر بن حيان في الكمياء، والكندي في الرياضيات، «كان عندنا(على حد قوله) كل هؤلاء الأفذاذ الذين تعترف أوربا بأنها مدينة لهم إلى الآن» وإذا كان العرب قد بلغوا مرتبة القيادة والزعامة فإنهم لم يكونوا يتحرجون من الاستفادة في هذا المجال بكل ما أنتجته الأنسانية من مكتشفات ولا بأس في ترجمة ما يتعلق بهذا الجانب الطبيعي من كتب، أما ما يتعلق بالفلسفة فإن المسلمون أجمعوا على أنه إذا كانت عقيدة اليونان حقًا فعندنا ما هو أحق منها وهو القرآن الكريم في الأسلوب الإلهي[1].

ومعنى الفلسفة عند هذا الدارس هي ابتداع دين بجوار دين أو عقيدة بجوار عقيدة، وأن اعتماد الفلسفة على العقل الذي لا يمثل إلا لوح من خشب يريد الإنسان أن يقطع به البحر في يوم عاصف، أما الدين المنزل فهو السفينة الآمنة لقطع البحر، ونحن إذا تركنا

---

(١) شوقي على عمر: محاضرات في تجديد الفكر الديني، ص٦٨-٨٩.

التشريع للعقل سيكون هناك الإختلاف وإذا تركنا ما وراء الطبيعة للعقل فسيكون أيضًا الإختلاف، فكل فلاسفة كل العصور مختلفون على أنفسهم ليس بينهم فيلسوف واحد يتفق مع الآخر. وإلا لما كان في حاجة أن تنشأ فلسفة جديدة لو اتفق مع زميله[1]. ونسى هذا أن الإختلاف نعمة وليس نقمة، وليتنا نحترم حق الإختلاف في الرأي ولا يفسد لنا في الود قضية، ألم يعلم هذا المتحدث باسم الدين أو بأي اسم كان، أن إختلاف الفقهاء كان رحمة.

ويخلص من بحثه هذا قائلًا:» والمَخرَج أن نصدر في كل هذه الأمور عن الدين، ولا مجال لرأي آخر، إذا أخلصنا لابد أن نعتمد في هذه المجالات الثلاث: مجال ما وراء الطبيعة، مجال الأخلاق، مجال التشريع[2]. هذا بالاضافة إلى كتاب الأستاذ على لبن «الغزو الفكري في المناهج الدراسية ـ منهج الفلسفة» وما يحمله هذا الكتاب من هجوم على الفلسفة وعلى الفلاسفة بل وعلى المشتغلين بالحقل الفلسفي الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، وشغلهم بذكر أعوان الشيطان!!

الفلسفة وحدها تفسر الثورة وما آلت إليه من محاولات لسرقتها

لقد قامت ثورة ٢٥ يناير ردًا على وجود الفساد والخراب الذي أضحى مقننًا وعلنيًا، الانسداد السياسي الذي بدأ في أفق الحياة المصرية بعد إحكام الحصار حول القوى السياسية الرسمية (الأحـزاب) والتزوير العلني للإنتخابات الذي أصبح هواية أدمنتها أجهزة المخلوع ومن ثم أصبح الفعل القانوني مستحيلًا وبعبارة الفلسفة تم الإحلال بموجبات العقد الاجتماعي وبنوده، فالعقد الاجتماعي اتفاق بين أفراد المجتمع ومجموعة مختارة لتولي مقاليد حكم الجماعة، بشرط أن يضمن هؤلاء الحكام المختارين توفير الحرية لأفراد المجتمع وتسخير قوة المجتمع لحماية الحرية الشخصية والممتلكات الخاصة فإن المجتمع يتعاون بإتفاق نفسه ويتنازل عن بعض حقوقه بشرط ضمان الحرية والعدالة بكل أنواعها والديمقراطية وغيرها، أما لو خرج عن هذا الإتفاق وإعتدى على الحريات فيحق حينئذٍ للشعب أن يخلعه من الحكم ويختار غيره، وهذاعين ما حدث في ثورة ٢٥ يناير.

---

(١) المصدر السابق، ص٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص٨٣.

وإذا كنا بهذا قد قدمنا تفسير الفلسفة لقيام الثورة فإننا نقدم أيضا تفسير الفلسفة لتلك المحاولات التي تحاول أن تسرق الثورة، فالذي قام بالثورة هم الشباب غير المسيس، أي غير المنضم لأحزاب سياسية معترف بها من الدولة، أي تلك الأحزاب الكرتونية التي كانت تمثل خيال المآت لا أكثر وإن كان خيال المآت أكثر نفعًا في حماية مزارع الخضر والفاكهة من الحيوانات والطيور الضارة، وأيضًا لم يكونوا من ذاك الشباب المحاصر ولا المثقل بإحباطات القوى السياسية ولا المقيدة بالقيود الأمنية التي كبلتها، فكان في طليعة هذا الشباب الثائر هذا النقيض الثالث الأكثر تطورًا حسبما تقول قوانين الجدل المادي عند هيجل، ولكن هذا الشباب منفرط وغير منظم في أحزاب بعد، وخبرته السياسية محدودة وأشخاصه وقادته غير معروفين للجمهور العريض؛ ولأن الثورة تحتاج في النهاية إلى من يترجم حصيلتها إلى فعل سياسي على الأرض فإن القوى الأكثر عددًا والأكثر تنظيمًا هي التي تربح الكعكة وهذا ما يحدث الآن بالفعل، حيث توارى الثوار ومن بذلوا الدم أو تم دفعهم للخلف، وتقدم الإخوان والسلفيون والجماعة الإسلامية.

فهل تم اختطاف الثورة وانتهى الأمر كما يتساءل أحد الباحثين؟ أم مازالت هناك فرصة لتثبيت مدنية الدولة المصرية واستنقاذ مصر من بين براثن الصحراويين[1] الذين يرون أن الديمقراطية حرام لانها تعني حكم الشعب للشعب، والحكم لا يكون إلا لله، وأن الليبراليين والعلمانيين كفار يجب استتابتهم،فإن لم يتوبوا فيحاربوا كما حارب أبو بكر المرتدين... إلخ ما جاء على لسان أحد مشايخ الدعوة السلفية في جريدة الأخبار (الأحد ١٢ ديسمبر٢٠١١) .أي هل مازالت الفرصة قائمة في العودة بمصرنا إلى نور الحرية والمدنية؟

أظن أن الإجابة هي نعم، فلن تختطف ثورة مصر؛ لأن مدنية مصر أقوى، وقوة الزخم التاريخي والثقافي والتنويري في مصر كبيرًا جدًا، ولأن الشباب الرائع الذي دفع الثمن دمًا وجراحًا من أجل الحرية لن يقبل بعودة الديكتاتورية بثوب ديني هذه المرة، ولان الشعب المصري وإن كان متدينًا بطبعه إلا أن تدينه طبيعي ووسطي لا يقبل الإفراط أو التفريط، ولا يقبل أن يملي عليه أحد نوعًا آخر من التدين، ومن هنا آن الآوان لنتوسع في الفهم وليس في الحفظ، في الفلسفة التي تدعو إلى الحرية والتنوير والتقدم لا في الدعوة إلى التخلف

(١) صلاح السروى: الإسلام السياسي ومصير الثورة، مجلة أدب ونقد، يوليو٢٠١١، العدد ٣١١، ص١٦-١٧.

والرجعية والجمود، في الدعوة إلى التفكير بحرية وعقلانية والإنفتاح على الآخر والحوار الفعال معه، وليس في دفن الرأس في الرمال والإنغلاق على الذات.

وقد توصل هذا البحث إلى عدة نتائج أهمها:

- الفلسفة والثورة مصطلحان متوازيان؛ فإذا كانت الفلسفة إعلاء لقيمة العقل فهي ثورة على عقلية الوهم والخرافة، وإذا كانت تمرد على سلطتي السياسة والدين فهي ثورة على الظلم والقداسة الزائفة.
- تعمل الفلسفة على التواصل بين المقررات الدراسية والثورة؛ فلم يشكل شباب الثورة تلك القطيعة المعرفية المزعومة بين ثقافة المجتمع - الذي كان يعيش في وقار البطريركية الأبوية - وبين الثورة على ذلك الأب (الفاسد) وخلعه ومحاكمته طبقا لنظريات العدالة والحرية والمساواة.
- إن الفلسفة والثورة كلاهما يؤمن بالعدالة والحرية والمساواة والتمرد.
- أن الفلسفة هادئة عقلانية سرعان ما تؤدي إلى شحنة انفعالية تحمل روح المغامرة.
- إن الفلسفة لا تسعى لفهم العالم فقط ولكن لتغييره، فالفكر الفلسفي رغم أنه يتحرك في عالم النظر العقلي إلا أنه سرعان مايتحول إلى قوة فاعلة تخرج إلى حيز التنفيذ والواقع الفعلي.
- إن الفلسفة تصقل عقليتنا الناقدة فتجعلنا على أهبة الاستعداد لتقويم المعوج بالقلب ثم باللسان ثم باليد إن لزم الأمر، وبدون هذه العقلية الناقدة لا يمكن ان تكون الثورات التي تغير من مسارات المجتمعات في الغالب الأعم إلى الأفضل، كما أن الفلسفة تجعله دائما يبحث عن الأفضل ولا يأبه بالمخاطر أيا كانت، ويقاوم العبودية ولا يرتضي بديلا عن الحرية، فأي ثورة تحمل في ثناياها دائما مقولة الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو «أفضل الحرية مع الخطر على العبودية مع السلم».